

مكتبتى ٢٢

المُلك لَك

وقصص أخرى

بقلم : د . مرعى مدكور

رسوم : منال بدران



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة - (ج . م . ع.)

إعداد الماكيت : أمانى والى

تحت ظلِّ النخلةِ العاليـةِ ؛ التـى تَقـعُ علـى ناصيـةِ حقلـهِ ؛ ضـمَّ الفـلاحُ النشيطُ رجلَيْه على بطنِ حمارَتهِ، وأخرجَ من بين شفتَيْه صوتًا يشـبهُ الصفـيرَ، وهو يُوقِفُ الحِمارةَ وسَمَّى باسمِ اللهِ وهو يقْفزُ من فَوق ظَهر حِمَارتِه إلى الأرضِ؛ وهَمّ إلى العملِ فى خفةٍ وحماسٍ شديدَيْن.

خَلع جِلبابَه الأزرقَ الطويلَ، وعلّقَهُ على جريدةٍ مُتدليةٍ من نخلةٍ صغيرةٍ مجاورةٍ للنخلةِ العاليةِ ذات الظل الـوارفِ التـى تقـعُ علـى رَأسِ حَقلِـهِ، وأخـذَ الفـلاحُ النشيطُ نفَسًا عمِيقًا ملأَ رِئَتَيْه؛ وحمدَ الله - سبحانَه وتعالَى - على تمامِ الصحـةِ والعافِيةِ، وشمرَ أكْمَامَ «فانلته» عن ساعِدَيْه، ثم سـحب ثـورَه ناحِيـةِ السـاقِيةِ، ووضعَ طرَفَ الذراعِ الخشبيةِ الطويلةِ - المتصلةِ من طرفها الآخرِ بمحورِ الساقيةِ - فوقَ رقبةِ الثَّور، وربَطها بحبلِ ليفٍ متين، وبَعدَ أنْ أحكـمَ تعليـقَ الثـورِ فـى الساقيةِ، وضع غِمامَةً سوداءَ فوق عينَىْ الثورِ لتمنعَ عنه الرؤيةَ، ثم رَجَع الفلاحُ النشيطُ إلى الوراءِ قِليلاً وأفسحَ الطريقَ للثورِ المربُوطِ من رَقبتِه فى السَّاقيةِ.

ثُم لفَّ الثورُ حولَ الساقِيةِ فى حركةٍ دائريةٍ، ودارتْ الساقِيةُ.

ومع دَورانِ الثورِ وحَركةِ السـاقيةِ؛ زادت حَركـةُ الفـلاحِ النشِـيطِ، وبصـرُه يروحُ وَيجىءُ مع ارتفاعِ قواديس الساقيةِ من البئرِ العميقةِ وهى محملـةٌ بالمِيَـاهِ؛ ودورانُها فى حركةٍ دائريةٍ إلى الجهةِ الأخْرى هابَطـةً؛ لتصبَّ هـذه المِيَـاه فـى المجْرَى المواجهِ لبئرِ الساقيةِ.

وترتفعُ المياهُ فى المَجْـرى متجهـةً فـى سـرعةٍ إلى داخـلِ الحقـلِ، ويرفَـعُ الفلاحُ فى كفيه حِفنةَ ماءٍ ويرميها إلى أَعْلَى فَرِحًا، ثم ينشَـغِلُ بتحويـلِ مجـرى المياهِ من حوضِ زرعٍ إلى حوضٍ ثالثٍ، ورابـعٍ، وخـامس.. الفـلاحُ النشـيطُ فـى غايةِ الفرحِ والسرورِ وهو يُشاهِدُ المياهَ تتدفَّقُ فى حيويةٍ وتَـرْوى الأرضَ العطشـى كاسِحةً ما يصادفُها من أوراقِ زرعٍ مقطوعةٍ وأعشابٍ صغيرةٍ نَاشِفةٍ فى المجْـرَى أمامَها، والأرضُ العطشَى المُتَشَقِّقةُ مـن غيـابِ المـاءِ تفْـرحُ وتزغـردُ بالميـاهِ التـى تتدفَّقُ فوقَها محدثةً أصْواتًا كأنَّها أعْوادُ قمحٍ تتكسَّرُ ساعةَ الحصادِ:

- شى.. ش..

والماءُ فى غايةِ الفرحِ وهو يجْرِى فى موْجاتٍ متلاحقةٍ؛ موجةٍ تجـرِى وراءَ موجةٍ؛ جهة النخلةِ العاليةِ التى تفرشُ ظلالَها على ناصيةِ الحقل والأرضُ مـن تَحتهِ - الماء - تزغردُ محدِثةً أصواتَ فرحٍ وسرور؛ مُرحِّبَةً بالماءِ ومهللَةً:

- ما ا ا ا ماء.. ما ا ا ا ء..

فى تلكَ الأثناءِ؛ وبَعيدًا عن الموجِ الذى يتهادَى موْجةً وراءَ موجةٍ؛ ابتعدَتْ حِفْنةُ ماءٍ عن التيار، وانزوتْ جانبًا فى زاويةِ حوضِ زرعٍ قريبٍ منـها، ومـالَتْ على بقيةِ الماءِ المتهاوى من حولها؛ وقالتْ فى غضبٍ:

- انظرْ أيها الماءُ الطاهرُ، هذه النخلةُ العجوزُ لا تعرفُ قيمتَنَا الحقيقيةَ، نعينُها نحن - الماءَ الطاهرَ الزلالَ - على الحياةِ فتشمُّ أنفاسـهَا مثـلَ غيرِهـا مـن خلـقِ اللهِ.

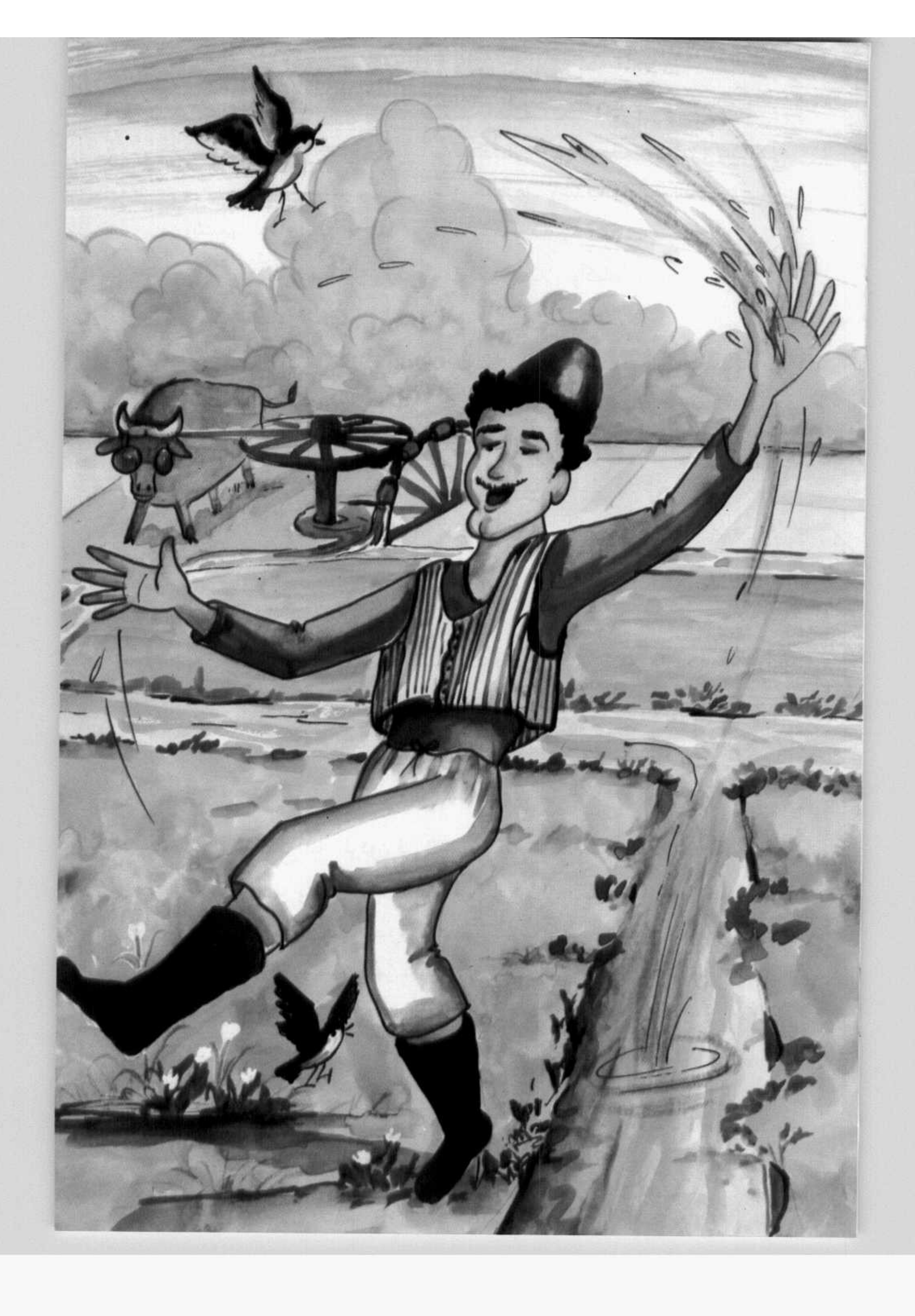
وتثمرُ بلحًا تختالُ به وتتمايلُ عُجبًا، فيهتم الآدمى بما تثمره ويجهزُه مع ما يجنيه من النخلِ الآخرِ ويصنِّفهُ أصنافًا مُصَنَّفة:

- رُطبُ - سكَّرى - نبوت الغفير - نبوت سيف - أسوانى - قعقع - رشيدى - أبريمى.

وغيرَه وغيرَه من أصنافٍ..

وينشئُ الآدمىُّ لهذه الأصنافِ مصانعَ لتعبئتِها وتكْييسِهَا، وتغليفها فتصبحُ أكْوَامًا كبيرة تباعُ وتشـترى، ومـن ليـفِ النخـلِ يصنـعُ الحبـال، ومـن جريـدِ جُذُوعهِ تسقفُ البيوتُ، وسيظلُ النخلُ مصدر نفعٍ للقادمِ والرائـحِ مـن الإنسـانِ والحيوانِ والطيرِ..

ورَفعتْ حَفْنةُ المياهِ قامتَها مشيرةً إلى طراوةِ الظـل أسـفلَ النخلـةِ؛ والغَيـظُ يأْكلُ قلْبها قائِلةً:



حتى هذه الحمارةُ، العرجاءُ، سعيدةٌ فى ظل النخْلةِ العجُوز، وها هى تهَشُّ بذيلِهَا الدبابيرَ والذُّبابَ عن جسدهَا، وعنْدَما يغلِبُها النحلُ الهائجُ ويشبِعُها لدْغًا، ترمِى نفسها فى مياهِ الترعةِ مُستنْجدةٌ بنا..

وتنهَّدتْ حَفنةُ الماءِ، وهى تأْخُذُ نَفَسًا طويلاً، وأكملَتْ كلاَمهَا:

– وفى النهايةِ لا شُكرَ ولا جَميلَ للماء أساسُ النعمةِ والحياةِ..

الماءُ المجاورُ لحَفْنةِ الماءِ الغاضبةِ سَمعَ هذا الكلامَ فاستعاذَ بالله من الشيطان الرجيم ومن الوسواسِ الخنَّاسِ، لكنْ حفْنةُ الماءِ قاطعتْ الماءَ المجاورَ لها فى الزاويةِ، قائلة:

أعرفُ أنَّ الله سُبحانه وتعالى خالقُ كلِّ شيءٍ ولكنَّه قالَ أيْضًا فى القرآن الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (١)

كما قالَ سبحَانه وتعالَى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (٢)

وقوله..

وهنا قَاطعَ الماءُ المركون فى الزاويةِ حفْنةَ الماءِ الغاضِبةَ، قائلاً لها:

– الله سُبحانَه وتعالَى يا بُنَيَّتِى مُجْرى الماءَ وخَالِقُ الحياةِ.. و.. لكنَّ حفنةَ الماءِ الغاضِبةَ لم تستمعْ لهذا الصوتِ وتدفَّقَتْ مسرعَةً جِهَةَ النخْلةِ العجوز، وتوقَّفَتْ – فى ظِلِّها – والغَضبُ يَهُزُّ كيانَها، ونظرَتْ من أسْفلِ النخْلةِ إلى أعلاَها، وقالَتْ لهَا فى تكبُّرٍ وفى صوتٍ متعجْرِفٍ:

(١) سورة الحج / الآية: ٥.

(٢) سورة النحل / الآيتان: ١٠، ١١.

- قدِّمِي لنا فُروضَ الطاعةِ والولاءِ أيَّتُها النخلةُ العجوزُ؛ فحبَّاتُ الماءِ قادمةٌ تروى عطشَكِ، وتَبُلّ عُروقَكِ، وتُنْقذُكِ من الجَفافِ والتيبُّسِ والموتِ المُحَقَّقِ.

الغيظُ جرَى فى جَسدِ النخلةِ العاليةِ، فاهتزَّ جريدُها، وتدبَّبَ سَعفُهَا واقِفا مثلَ الإبرِ، وَوشْوشَ الجريدُ بعضَه بعضًا، وحدثَ هرجٌ وَمَرجٌ.. ولكن بحكمتها المعروفةِ تمالَكتْ النخلةُ أعصَابَها، وفى صوتٍ وقور قالتْ لحفْنةِ المياهِ الغاضبةِ:

- الشكْرُ أولاً لخالقِ الكونِ؛ سبحانه وتعالى؛ مُجْرِى الريحَ والسحابَ و..

اشتدَّ غَيظُ حَفنةِ المياهِ الغاضبةِ، وقَاطَعتْ النخْلةَ ساخرةً:

- لا تنظُرِى أيتُها النخلةُ إلى هَذا الفلاحِ الذى أطْلَقَ عليكِ اسمَ «المبروكة»، فالمبرُوكُ هو الماءُ، وانظُرِى حولَك أيتُها النخلةُ العَجوزُ، فهاهى الأرضُ التى شققَّهَا الجَفافُ تُزغْرِدُ لجريَانِ الماءِ فوقَها وهاهى الكائِناتُ الحيةُ يرتَوى عَطشُها وينْطفئُ لهيبُها بمُجردِ مُرُور الماءِ بها، والإنسانُ حياتُه الماءُ: يشربُ الماءَ، ويعيشُ بالماءِ ومن الماءِ، ويركبُ الماءَ فى المراكبِ والسفنِ، والدنْيا كلُّها تتحولُ بفعلِ الماءِ إلى حدائقَ غنّاءٍ.

وَشْوَشَ جريدُ النخل بعضَه وهم يذكرُ حَفْنَةَ المياهِ الغاضبةَ أن النخلَ - أيضًا - مذكورٌ فى القرآنِ الكريمِ، و.. ولكنْ قاطعتْه حَفنَةُ المياهِ الغاضبةُ وهى تواصلُ الكلامَ وتنظرُ إلى الجميعِ فى ازدراءٍ، قائلةً:

بَينَنا كِتابُ اللهِ الكريمُ أيتها النخلةُ العجوزُ، ألم تَقرَئى كلامَ اللهِ فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء الآية ٣٠]

تعجبتْ النخلةُ من موقفِ حَفْنةِ المياهِ الغاضبةِ، ورَدَّتْ عليها فى هدوءٍ:



- قرأتُ يا أُخَيَّتِى، وزادَكِ اللّهُ مـن نعيمـه، فـالتَّعُددُ والتكـامُلُ أسـاسُ الحيـاةِ البشريةِ..

فى تلكَ اللحظةِ، كانت المياهُ المتدفِّقَةُ قد زادَتْ فى حوضِ الزرعِ الذى تَقعُ فيه النخلةُ العاليـةُ، وَغطَّـتْ النباتـاتِ الصغـيرةَ التـى بـدأتْ تظهـرُ مـن بـاطنِ الأرضِ، وما أنْ وَقعتْ عينَا الفلاحِ النشيطِ علـى الميـاهِ التـى زادتْ فـى حَـوْضِ الزرعِ حتَّى رَمى عصَاهُ الطويلةَ التى يُلْهبُ بها ظهْرَ الثوْرِ - المعلَّق فى السـاقِيةِ - من حين لآخرَ، وأسْرعَ الفلاحُ يُسدُّ مَجْرى المياهِ وتناوَلَ جردلاً وأخذَ ينْزحُ بـه المياهَ التى زادتْ فى حوضِ الزرعِ، ويرمِيهَا على جانبِ الترعَةِ، وتُحدِثُ الميـاهُ - التى يرمِيها الفلاحُ - أصواتَ فرقعةٍ وهى تختلِطُ بالترابِ وتقـعُ علـى الأرضِ الساخِنةِ.

وزادتْ الحرارةُ التى تَلْسعُ الأقدامَ، وبفعلِ الحَرارةِ الشَّـديدةِ تَتبخَّـر الميـاهُ التى يَنْزحُها الفلاحُ ويرْمِيها فوقَ جانبِ الترعةِ، تَتَبخَّرُ كأنها دخانٌ، وتَتصَاعدُ أبخرتُها فى طبقاتِ الجوِّ العُلْيَا.. حَفنةُ المِياهِ الغاضبةُ التى اغتاظَتْ من النخلـةِ العاليةِ كان نصيبَها وقوعُها فى جردلِ الفلاحِ النشيطِ ليرمِيَها مع حَفْنـاتِ ميـاهٍ أخْرى على جانبِ الترعةِ، وتبخَّرتْ هى الأخْرى مع المياهِ الزائدةِ عـن الحـدِّ، وتصاعَدت - بَخْرًا - فى طبقاتِ الجوِّ العُلْيا.

سمِعَتْ، وهى تَتبخَّرُ، الكائناتِ تُسُبحُ بحمِـد اللهِ: «الـمُلك لـك» «الـمُلك لك، ما أعدلك».. وفى أثناءِ انشغالِها بالإنصات إلى مخلوقـاتِ اللهِ وهـى تُسـبحُ بحمدِه، لمَ تنْتَبهْ إلى نَفسِها وهى تَتَجمدُ مرةً أخرى فى طبقاتِ الجَـوِّ العُلْيـا ثـم تَسْقُطُ فى شَكلِ حباتِ نَدَى فوقَ سَعفِ النخلةِ العاليةِ الطويلةِ الباسقِةِ والمبتسمةِ على الدوامِ، والتى يستجير المارة بظلها من الحر اللافح، والنخلةُ العاليةُ سعيدةٌ غايةَ السـعادةِ، وهـى تمـدُّ جذورهَـا لأعمـاقِ الأرض وتجـاهدُ لتسـحبَ الغـذاءَ، وتوزعهُ دونَ كلٍّ أو ملَلٍ على جريدِها، وسباطِها، وسعفِها..



قطراتُ النَّدى التى تجمعَتْ وَقَفتْ فوقَ بضعِ سعفاتٍ من جريدِ النخلةِ العاليةِ، رأتْ هذه القطراتُ النخلةَ سعيدةً غايَةَ السعادةِ بعَطائِها الوفيرِ وفرحِها، ومَرحِها، وقناعَتِها.. وقالتْ قطرةُ المياهِ لنَفْسها بعدَ أن انزاحَ غضبُها:

- أخطأتُ واللهِ فى حقِّ أُخَيَّتِى النخْلةِ، فالكلُّ يعملُ ويعْطِى والواحدُ منا لا يمْكِنُ أنْ يَعيشَ بنَفسهِ ولا لِنَفْسِه فقطْ.

وفى الوقْتِ الذى كانتْ قطراتُ النّدى المُنْكَمِشَةُ فوقَ سَعَفِ إحدى جريدِ النخلةِ العاليةِ تهمُّ بالاعتذار للنخلةِ؛ فى ذلك الوقتِ هبّتْ نَسمةٌ نديةٌ طوحَتْ جريدَ النخلةِ العاليةَ يمينًا ويسارًا..

هنا انْزلقتْ قَطراتُ الندى من فوقِ السعفِ فى سرعةٍ غريبةٍ إلى أسفلَ، وما أن استقرَّتْ على الحرِّ اللافِحِ فوقَ الجِسْرِ؛ حتى وَجدتْ قطراتُ الندى نفسَها تَتَبَخَّرُ - مرةً أخْرى - فى الفَضاءِ الفسيحِ، والكُلُّ من حولها يُسبحُ بحمدِ اللهِ، ويعملُ، ولسانُ حالِه يكرِّرُ:

المُلكُ لك، المُلكُ لك، ما أعدلَك..

حصة رسم

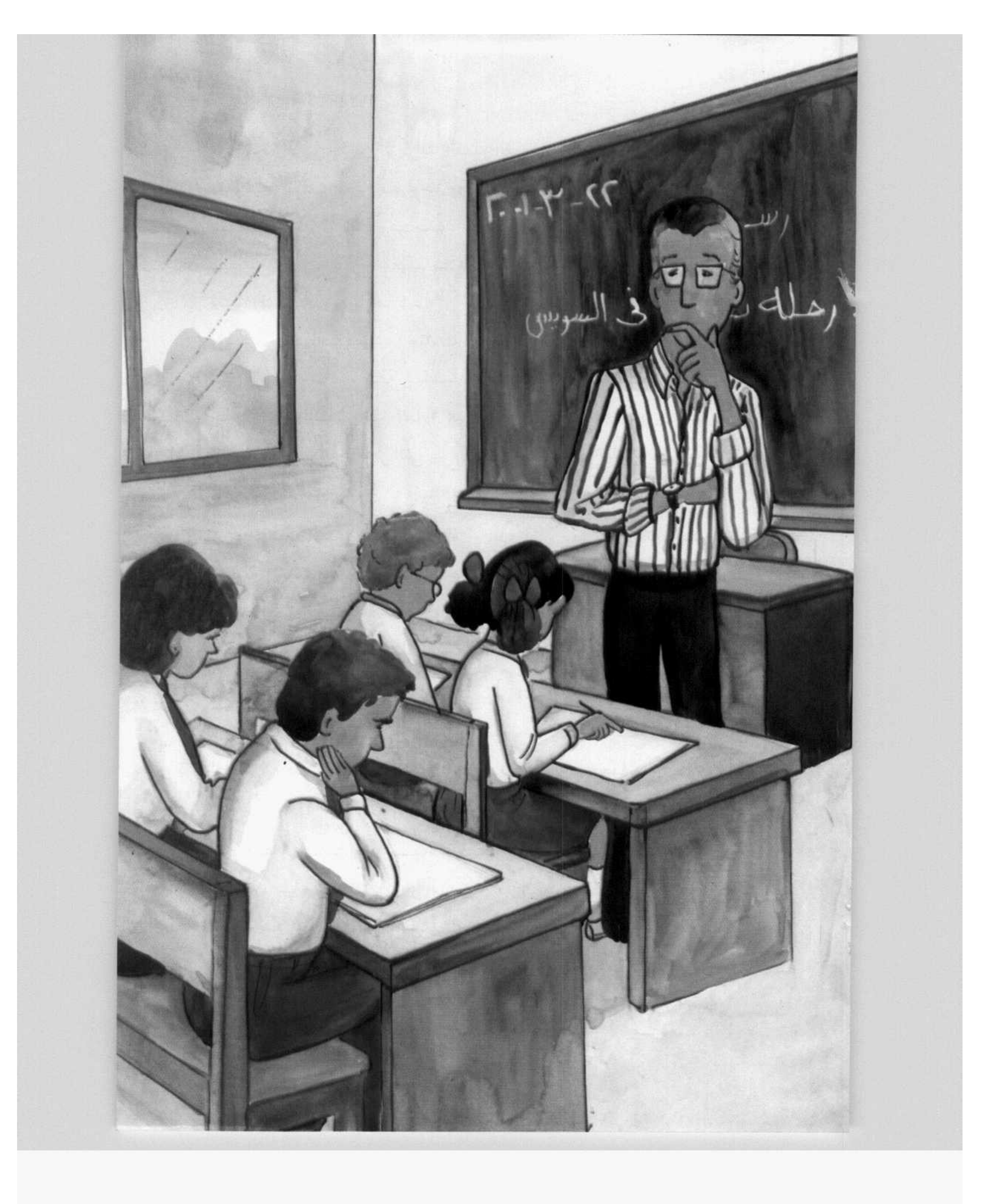
للمرةِ العاشرةِ منذُ دخولِه الفصل، يرْفعُ مدرسُ الرسمِ يدَه - ويقَرِّبُها من وجهه - وينْظرُ إلى ساعَتِه، ثم ينْظرُ إلى الولدِ النحيلِ مصطفى.. هذه المرةُ - العاشِرةُ - تَعَجَّبَ وسأل نفسَه مُتحَيِّرًا:

نصفُ ساعةٍ طويلةٍ عريضةٍ فاتَتْ، والولدُ مصطفى لم يرفعْ يدَه.مُشيرًا إلى انتهائِه من رسمِ البحرِ، ولم يرفعْ إصبَعَه ويصيحُ مُنفَعِلاً كالعادةِ:

أستاذُ.. أستاذُ.. أنا يا أستاذُ..!!

وأعادَ الأستاذُ النظرَ إلى مصْطفَى، الولدُ - ما شاءَ اللهُ - شعلةُ نشاطٍ وحيويةٍ، رغمَ نحافَةِ جَسدِه التى تكادُ تَصِلُ إلى درجةِ الهُزال.

غريبةُ؛ أولُ مرةٍ لا يسبقُ الولدُ فيها زملاءَهُ، وزيادةً على ذلك تأخَّرَ عن الانتهاءِ من رسمِ الدرس..!.. العادةُ أنَّه بمجردِ مُرور دَقَائِقَ على بدايةِ الحصةِ، تسمعُ طَرقَعَةَ أصبعِه و «أنا يا أستاذُ.. أنا يا أسْتاذُ».. والنتيجةُ: لوحةٌ تشكِيليةٌ تتناسقُ فوقَها ألوانٌ معبّرةٌ، وتتقاطَعُ داخلَها خطوطٌ حادةٌ وواضحةٌ، لا أثَرَ عليها لكَشطٍ أو مَسْحٍ أو تردُّدٍ.. حتى أصبحتْ لوحاتُه تُزيِّنُ الفصْلَ والفصولَ الأخْرى فى المدرسةِ، وتحتلُ عدةَ واجهاتٍ فى الطرقاتِ، وفى حجرةِ الناظرِ، وفى مُواجَهةِ الداخلِ إلى غُرفةِ المدرسِين.

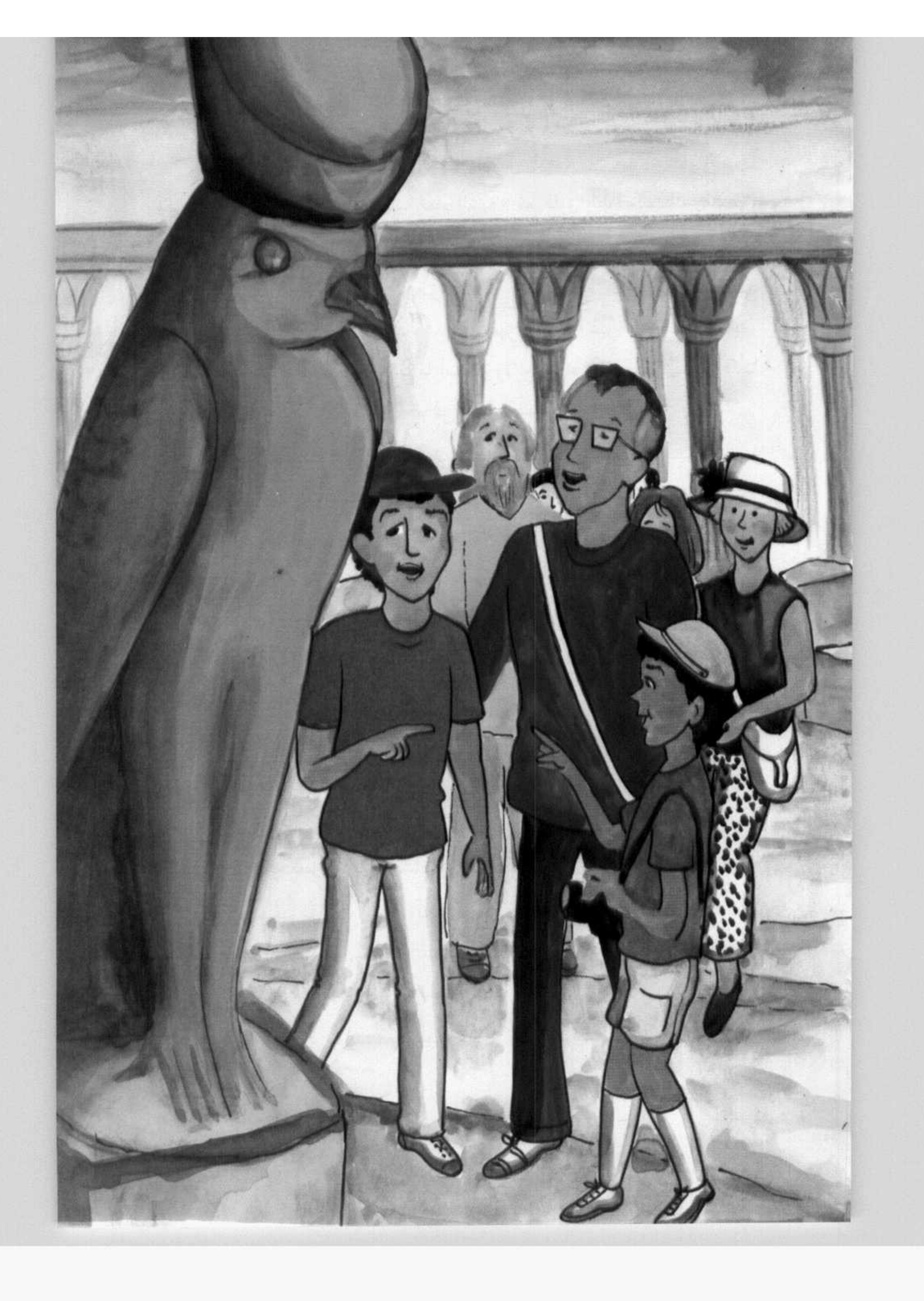

٢٢-٣-٢٠٠١
رحلة
السويس

مرةً، فى زيارةٍ من الزياراتِ القليلةِ التى شَرَّفَ فيها مدرستَنا مديـرُ الإدارةِ التعليميةِ، توقَّفَ المديرُ أمامَ لوحةٍ مُعَلقةٍ على الحائطِ، وسألَ عن الفنَّان صاحبِ هذا الرسمِ المعبِّر، ووسطَ زهوِ حضْرةِ النـاظرِ، وانشِغَال وكيـلِ المدرسـةِ بإحضار مصطفى، ووقوفِه ضاربًا «تعظيم سلام» لحضرةِ المدير، واصـلَ المديـرُ كلامَـه - مشيرًا إلى اللَّوحةِ - شارحًا كيف أنَّ السدَّ العالِى أنقذَ بلادَنا بالفعل مـن مجاعَـةٍ مؤكَّدَةٍ أو فيضاناتٍ مميتَـةٍ: وزادَتْ ابتسـامةُ المديـرِ وإصبَعُـه يقـتَربُ مـن وجْـهِ عبدِ الناصرِ - المرسومِ بدقةٍ - بابتسامَتِه الشهيرةِ وشَعرُه الضَّاربُ بالبياض على جانِبَىْ الوجْهِ المتلألِئِ فوقَ المياهِ، عَبْرَ موجةٍ كأنها تتهادَى فـوقَ موجـةٍ أخْرى تُطلُّ منها وجوهُ الجماهيرِ التى يُلوِّحُ لها الزعيمُ، والتى تُبادِلُه التحيـةَ بـهُتافٍ يخْرجُ من الأعماقِ.

ولما تنبّه المدير إلى وجود مصطفى، الذى كان ثابتًا فى وَقْفَتِه وَيدُه ما تـزالُ مرفوعةً «تعظيم سلام»، انحنى الرجلُ وطوَّقَهُ بيدَيْه، وطبعَ قُبلةً علـى جَبينِـه، وأخرجَ - من الجيبِ الداخلى «لجاكتته» - جُنيهًا كامِلاً قدّمه له وَسـطَ تصْفِيـقِ الحاضرينَ، وقالَ بصَوتٍ يملؤُه الفخرُ والاعتزازُ:

- هذا الوَلدُ ينتظرُه مُستقبلٌ كبيرٌ بإذن اللهِ.. فى اليوم التالى للواقعةِ، وبعد أن اصطفَّ التلاميذُ فى طَابور الصَّباحِ وأدَّوْا تحيةَ العلم، ارتفـعَ التصفيـقُ تحيـةً لمصطَفى، وقدَّمَ له حضرةُ الناظِرِ ساعةَ يدٍ قامَ بنفسِه بوضْعِها على يدِه الرفيعةِ، وقبَّلَ جَبينَه ودعا اللهَ أنْ يحرسَه لوالدَيْه وللوَطن.

والمُفَاجَأةُ كانَتْ بعدَ أسـبوعٍ، حيـث وصلَتْ المدرسـةَ رسـالةٌ مُسَجلةٌ مـن المديريةِ، بها ثلاثُ تَذاكِرَ سفرٍ إلى أُسْوانَ (ودعواتُ اسـتضافةٍ فـى فنـدقٍ كبـير) لزيارةِ السَّدِ العالِى: واحدةٌ للفنان الصغـيرِ مصطفَـى - هكـذا مكتـوبٌ عليـها - والثانيةُ لوالدِ مصطفى، والتذكرةُ الثالثةُ باسمِ مدرسِ الرسـمِ الـذى تَبَنّـى موهبـةَ مصْطَفى.



وكانتْ رحلةً جميلةً، صَحِبَ فيها مدرسُ الرسمِ - بعد اعتذار الأبِ - مصطفى وأخَاه الأكبرَ الذى يُشبهُه تمامَ الشَّبَهِ، مع فارقِ الطولِ لصالحِ الشقيقِ الأكبرِ.

مِنْ يومِها وحِصةُ الرسمِ فى فصْلِ مصطفى لها طَعمٌ خاص، عند مصطفى وعند مدرسِ الرسْمِ لكِنْ حِصَّةُ اليوم - عَلى غَيرِ العَادةِ - غيرُ الحصصِ كُلِّها، فلا مصطفى طَرْقَعَ بإصبَعِه «أنا أنا يا أستاذ» ولا حتى حَرّكَ يدَه ليُمْسِكَ قلمًا أو يَنْظر إلى لونٍ، مع أن درسَ اليومِ فى غايةِ السهولةِ!!.

وحارَتْ نظراتُ الأستاذِ بينَ تلاميذِه، وأَوّلُهم مصطفى، وبينَ عناصرِ الدرْسِ المكتُوبةِ على السبورةِ؛ وراجَعَ الأستاذُ العنَاصِرَ عُنْصُرًا بعد عُنصرٍ، لا لَبْسَ فيها ولا غُموضَ، بل على العكسِ: واضحةِ الوضوحَ كلَّه.. ومع ذلك بَدأَ، مرةً ثانيةً، يُعيدَ شرحَ عناصر الدرس عنصُرًا عنصُرًا: فهاهى الشمسُ، تتوسَّطُ السماءَ، والحرُّ اللافِحُ يجْعَلُ العرَقَ يَسيل من الأبدان، والماءُ الذى جَعلَ اللهُ منه كلَّ شىءٍ حىٍّ، والمراكبُ والسمكُ، والشاطئُ، ورَمْلُ الشاطىءِ، والشماسىُّ الملَوَّنَةُ المغرُوسةُ فى الرمالِ على الشاطىءِ، و.. وما أجْمَلَها مِنْ نزهَةٍ عَلى الشَّاطِىءِ..

«صحيحٌ، ما أجملَها نزهةً حتى لو كانتْ نزهةً على الورقِ!»..

قال مدرسُ الرسمِ ذلك بينَه وبينَ نفسِه وهُو واقفٌ أمامَ مصطفى: هذا الولدُ كتلةُ الهدوءِ والحماسِ وشعلةُ النشاطِ والذكاءِ.

لكنَّ مصطفى لم يرفعْ يدَه ويُطَرْقِعُ إصبَعَه - كعادَتِه - مُنَبِّهًا: «أستاذُ أستاذُ. أنا يا أستاذُ» ولم يتحركْ القلمُ بين أصابعهِ النحيلةِ، كأنما غابَتْ عنْهُ الأفكارُ تمامًا، حتى ظَلتْ ورقةُ الرسمِ أمامَه كما هى بيضاءَ.!!

ويلاحِظُ الأستاذُ شُرودَه، وينشغِلُ عليه، ويميلُ عليه مستغْربًا، مُتسائِلاً:

- مصطفى!

وينظُرُ مصطفى وكَأنَّ أثقالَ الدنْيَا فوقَ رأسِه ويُجيب مُصْطفى:

- نعم يا أستاذُ.

ويسألُه الأستاذُ:

- قرأتَ الدرسَ يا مصطفى؟

ويَردُّ مصطفى:

- قرأتُه يا أستاذُ.

- وفهمتَه يا مصْطفى؟

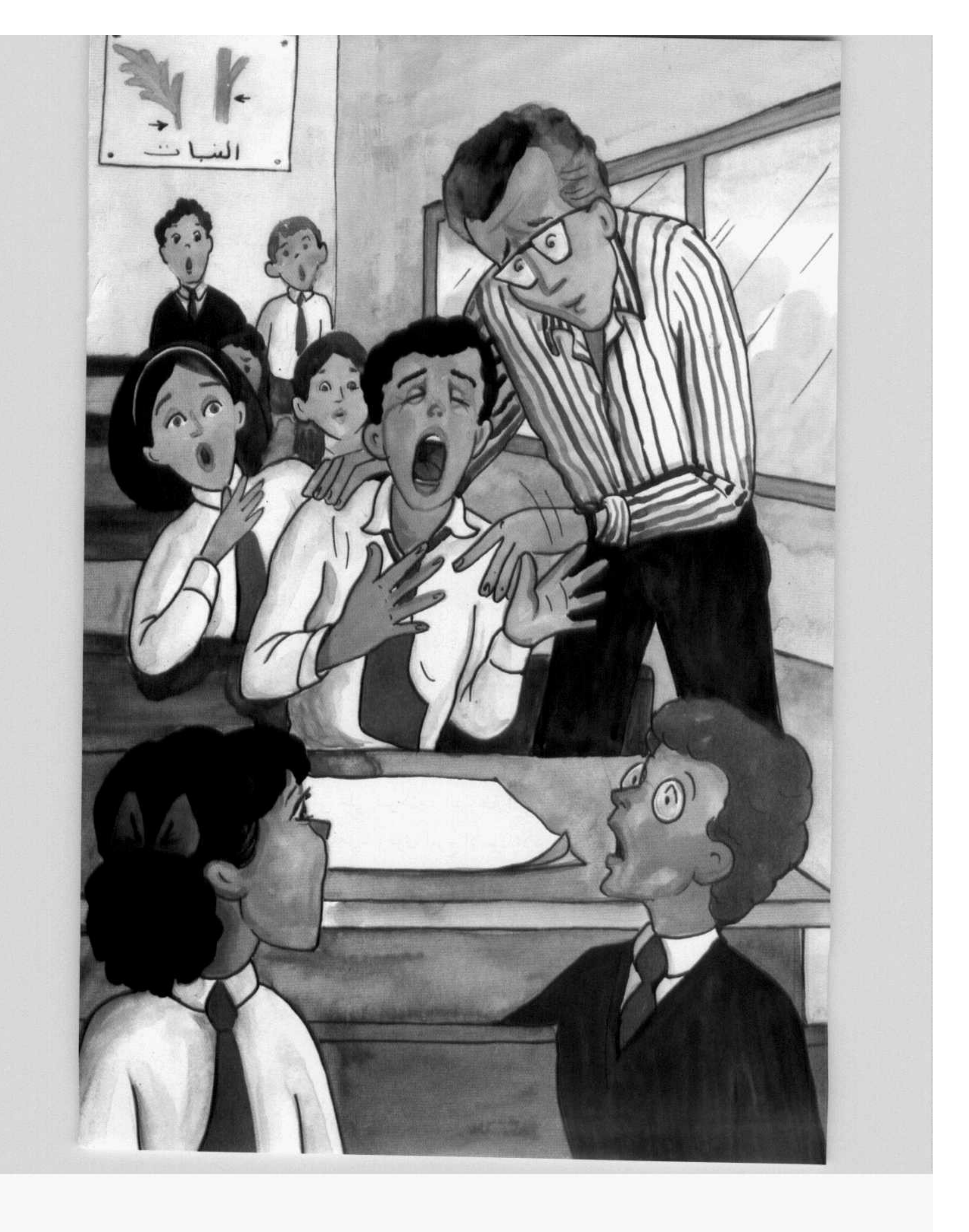
- فهمتُه يا أستاذُ.

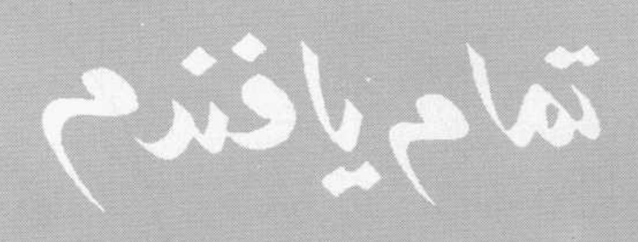
ويَحارُ الأستاذُ، ويُكَرِّرُ كَلامَـه - مـرة ثَالِثَـةً - عـن درْسِ اليـومِ والبَحـرِ، ونسيِمِ البحْرِ، وأمْوَاجِ البحرِ، و..

وفجأةً انتفَضَ مصطفى كأنَّ الأمواجَ تتَقَاذفُه، وأحسَّ بطعمِ المِلْحِ يسدُّ طريقَ الهواءِ إلى رئتَيْه.. وقْتَها حـاوَلَ جاهِدًا أن يـأْخذَ نَفَسًا، وصَرَخَ، وتحشْـرجَتْ أنْفاسُه، و «أشهدُ أن لا إلـهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمـدًا رسـولُ اللهِ».. و.. ولم يشـعُرْ بشيءٍ إلا وهُو علَى الشاطئِ: رأسُه إلى أسْفَلَ وأيدٍ مُتعـددةٌ ترفعُـه مـن قَدَمَيْـه، والماءُ يتدفقُ من فَمِه على رَملِ الشاطئِ..

بعدها ندمَ مصطفى على صرْخَتِهِ، الصرخةُ التى أسرَعَ على إثْرِها أخُوه إلى البحرِ لإنقاذِه، أنقذَهُ بالفعلِ، وطوىَ الموجُ الأسودُ الأخَ.

ومرةً واحدةً تحركَتْ الألوانُ فى يدِ مصطفـى، رسـمَ مياهًـا سـوداءَ، ورسـمَ أمْواجًا هائِجةً، ورسَم بحرًا أسْودَ فاغِرًا فَاه وهو يلتهِمُ الشقيقَ الأكبرَ.


النبات



هذا الصباحِ ؛ ومثلُ عادتهِ كلَّ صباحٍ ؛ ما أن يتنفَّسَ الصبحُ حتى يفتحَ الولدُ عينيه مبكرًا ويرفعَ رأسَه ويجلسَ على سريرِه قبلَ أن يرِنَّ جرسُ المُنبه الموضوعِ بجوار السريرِ.

ومعَ عادتِه كلَّ يومٍ فى الصحوِ قبلَ أن يَرِنَّ المُنَبِّهُ، فإنه ينظرُ إليه ويتركُهُ حتى تحينَ الساعةُ التى ضَبَطه عليها تمامَ السادسةِ فيعلُو صوتُ المؤذنِ الصادر من المُنَبه :

اللّهُ أكبرُ اللّهُ أكبرُ

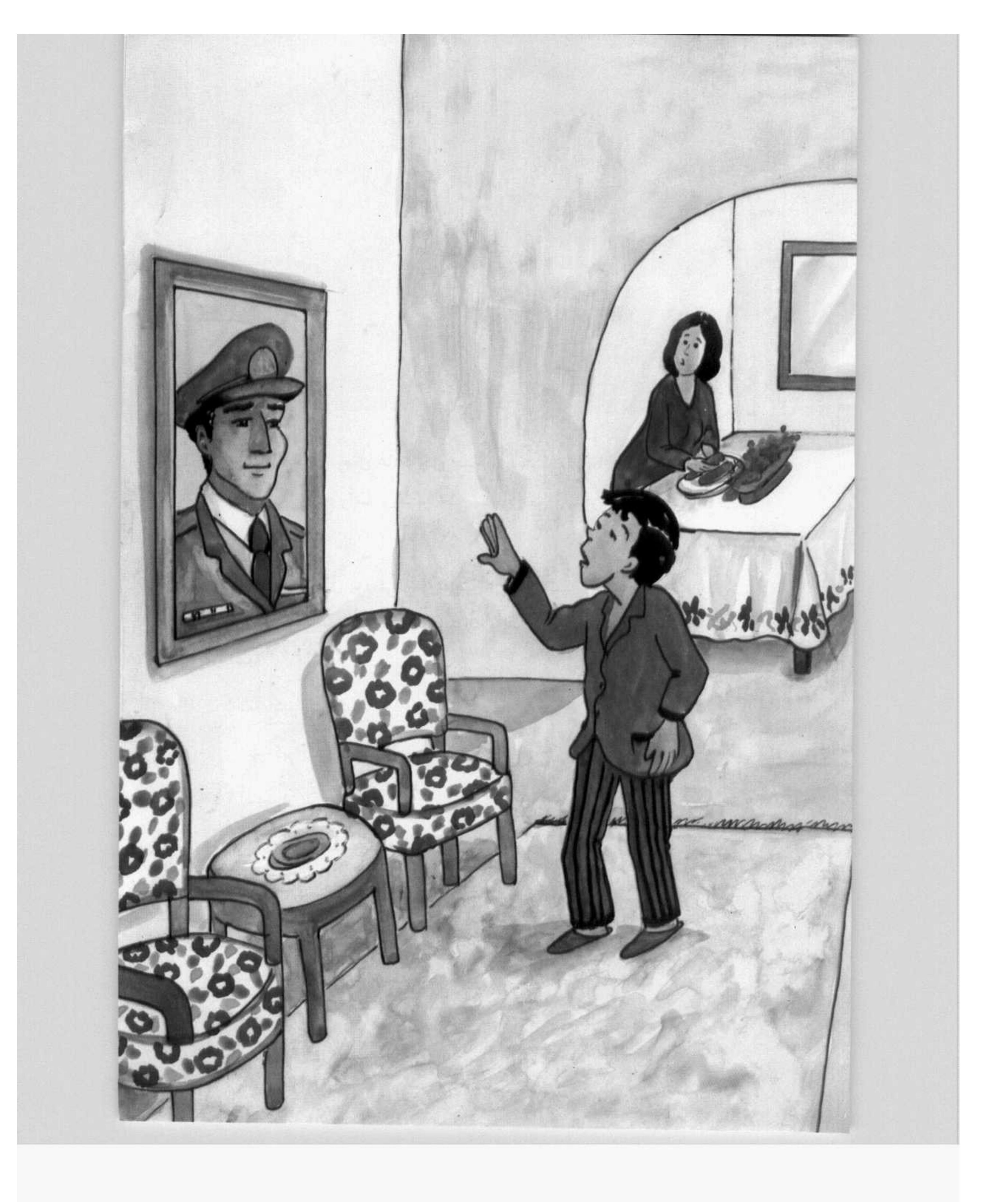
اللّهُ أكبرُ اللّهُ أكبرُ

أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللّهُ..

أشهد أَنَّ محمداً رسُولُ اللَّهِ..

يرددُ الولدُ الأذانَ مع صوتِ المؤذنِ المنسابِ من المُنَبه..

منذُ أيامٍ أعجبَه صوتُ المؤذنِ الصادر من أحدِ المنبهاتِ فى محلٍ مِنْ محلاتِ وسطِ البلدِ فُوجِئَ بأُمه تشترِى له واحدًا.



ينشرحُ صدرُه وهُو يسمعُ الأذانَ، ويكون - فى التوِّ واللحظةِ - قد وثبَ؛ فى خِفةٍ ونشاطٍ ملحوظَيْن؛ بقفزةٍ واحدةٍ إلى الأرض، وانتهى من «ترْتيبِ» حُجْرته، ثم وقفَ باتجاهِ الصورةِ المُعلَّقةِ على الحائطِ فوقَ سريره، يشدُّ قامتَهِ ويرفَعُ يدَه اليمْنَى بالتحيةِ وهو يهمِسُ فى شُمُوخٍ وجَسدُهُ يرتعشُ كعادتِه عندما يؤدِّى هذا الواجبَ:

- صباحُ الخيرِ يا سيادةَ العميدِ أركانَ حرب إبراهيم الرفاعى..

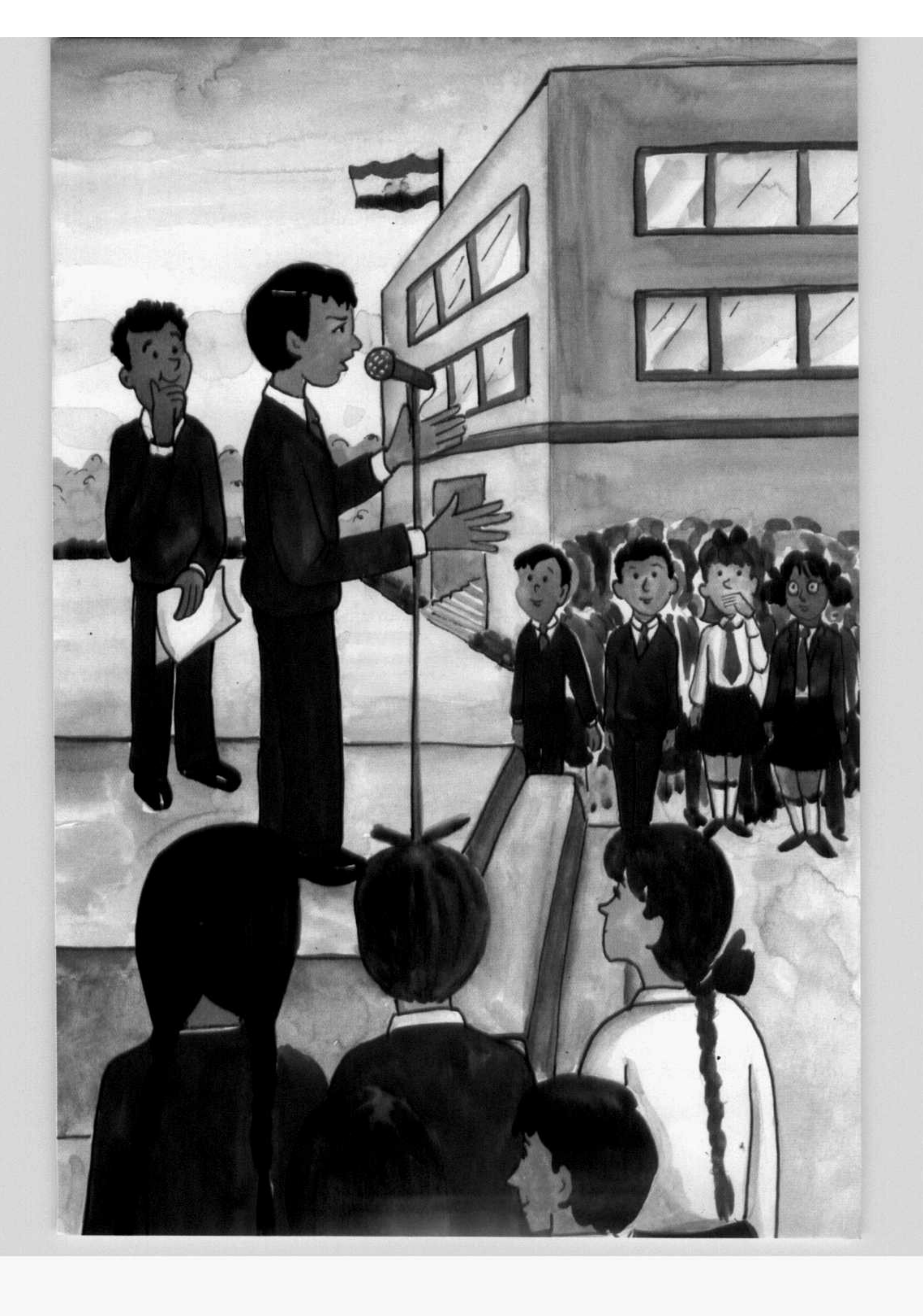
ينتَهى من التحيةِ، ويبْدأُ برنَامَجه اليومِىَّ: يغتسلُ، ويتوضأُ، ويصلِّى لله الواحدِ الأحدِ.. بعدَها يفتحُ نافذةَ حجرتِه فتدخُلُ الشمسُ تتنفسُ كأنَّها تَستأذنُه أن ترمِىَ خيوطَها الذهبيةَ على جانبٍ من سريره وبطانيتِه المفروشةِ عَليْهِ، والمرسُوم عَليْهَا أَسَدٌ جَالِسٌ فى استرخاء وسطَ أعشابٍ خضراءَ ويرنُو بعين نائمةٍ إلى غزال بعيدٍ شاردٍ.. يبتسمُ وهو يرى عمَّ صابرًا - حارسَ العمارةِ - مشمرًا أكمامَه عن ساعدَيْه ومعلِقًا ذيلَ جلبابه الواسعِ فى «دكة» سروالِهِ؛ ويحركُ بيده خرطومَ المياه يمينًا ويسارًا وهو يرشُّ أشجارَ الحديقةِ، فتتمايلُ الأوراق الخضراء وتنعكسُ عليها أشعة الشمسِ الطالعة فتزيدهُا بهاءً وجمالاً..

اطمأنَّ إلى الورقةِ التى كتَبها بالأمسِ بعد انتهاءِ مراجعةِ دروسِه ليلقِيَها اليومَ فى الإذاعةِ المدرسيةِ، أعجبتْه فوضعَهَا فى حقيبتِه المدرسيةِ..

بعدَها يتجهُ إلى حجرة والدتِه ويدقُّ بابَها، يسمعُ صوتَها تناديه من المطبخِ، يسرعُ جهتَها مُحَيِّيًا.. لكنها تسبقُه كعادتِها كلَّ صباحٍ؛ قائلةً وابتسامتُها تعلُو وجهَهَا:

- صباحُ الخير يا حضرةَ العميدِ أركانَ حربِ رفاعى إبراهيم الرفاعى..

يقتربُ منها ويرفعُ يدَه تلقائِيًا بالتحيةِ العسكريةِ وهو يشبُّ على أطرافِ أصابعه ويمدُّ قامتَه لأعْلى:



- تما اااام يا فندم..

وعَلى الفور تترك الوالدةُ ما يشغَلُها كلَّه، تمسَحُ يدَيْها من المياهِ التى تبللها، وتنحَنِى إليه وتَقبِّلُه فوقَ جبينهِ، ثم تَضمُّه إلى صدْرها فى حنانٍ زائـدٍ.. ويَسمعُ صَوتَها الهامسَ وهى تَنظرُ إلى البعيدِ:

- يا اااه.. يا إبراهيمُ يا رفاعى..

وقتَها يشعرُ بالفخرِ يملأُ جوانِبَه؛ وأمُّه تتحدثُ إليه باعتباره كبيرًا، أكـبرَ من سنِّه، وتذكِّرُهُ ليلاً ونَهارًا بوالدِه العميدِ أركان حرب إبراهيم الرفاعى..

تُنادِيه باسمِه: «يا سيادةَ العميدِ أركانَ حرب» فتضـعُ علـى أكتافِه المـهامَّ الجسامَ التى يُفكِّرُ - رغم صغرِ سنِّه - فيها كثيرًا.. ويتجهَان معا؛ مثلَ عادتهما كلَّ صباحٍ؛ ليقفَا أمامَ الصورةِ الكبيرةِ المُعَلَّقـةِ فـوقَ الحـائطِ، والتـى ترتكـزُ فـوقَ جانِبِها الأيمن ميدالياتٌ وأوسمةٌ ونياشينُ.. ويزيدُ عليها هو كلَّ شهورٍ ميدالياتٍ وشهاداتِ تقديرٍ متعددةً يحصلُ عليها من فريقِ «الكاراتيـه» بالنـادى، وتعلقُـها والدتُه بنفسِها بجانبِ أخواتِـها.. بعدهـا يَروحـان معـا - الولدُ ووالدتـهُ - إلى «دولابِ الذكرياتِ» كما تطلـق أمُّـه عليـه ويقلبـانِ الصـورَ، ويكـرِّرانِ - معـا - التعليقاتِ التى كرَّرَاها عشراتِ المرات:

- صورةُ التفوقِ فى ضربِ النار.

- كأسُ المركزِ الأوَّلِ فى الفروسيةِ.

- وصورة..

- وصورة..

ويختتِمان تعليقاتِهما بلمس «نجمـةِ سيناءَ» التـى اسـتحقَّها اسمُ الشـهيدِ عميدُ أركانُ حربِ إبراهيمُ الرفاعى بعد بلائهِ بلاءً حسَنًا فـى «الفرقـة السادسـة مشاة ميكانيكى» وهو يثأرُ لرفقاءِ السلاحِ الذين دمَّرتْهم طائراتُ العدوِّ وهم يبنُون حوائطَ الصَّواريخِ على الشطِّ الغربىِّ للقناةِ..

يتناولُ إفطَاره مع والدَتهِ، وينظرُ إلى الساعةِ المعلقةِ فوقَ الحائطِ فينهضُ مُعلِّقًا شنطةَ كُتبه خلفَ ظهرِه، ثمَ تلوحُ له فكرةٌ مفاجئةٌ: لماذا لا تكونُ كلمةُ الإذاعةِ المدرَسيَّةِ اليوَم كلمةً مرتجلةً عن حُماةِ الوطِن، ووجدَ نفسَه يكّورُ بينَ يديه الكلمةَ التى بذَلَ جُهْدًا كَبيرًا فى كتَابتها بالأمس قُرابةَ الساعَتَيْن.. فسيرتجلُ هذا الصباحَ كلمةَ الإذاعةِ المدرسيةِ، وعن الموضوعِ نفسِه..

ومع صوتِ نفيرِ سيارةِ المدرسةِ؛ كان يخطُو وَاثقًا وفى ذِهْنه عشراتُ الكلماتِ المْرتجَلَةِ عن والدِه العميدِ أركانِ حرب إبراهيم الرفاعى وزملاَئهِ حماةِ الوطن ومقتطفاتٍ كاملةٍ من الروايةِ التى كَتبَها الغِيطانِيُّ عن والدِه؛ وفازَ بها بجائزةِ الدولةِ؛ ويكادُ يحفظُها عن ظهرِ قلبٍ.

❁❁❁

رقم الإيداع	٢٠٠١/٧٧٦٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6145-9

٧/٢٠٠١/٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)